مقال افتتاحي

التراث العمراني في قطاع غزة والجوانب الثقافية المتعلقة به

نهاد محمود المغني

تعتبر القيم الثقافية والحضارية لأي مجتمع عاملاً أساسياً للحفاظ المعماري عند ذلك المجتمع. وتحمل تلك القيم -في الوضع المثالي- في طياتها الوعي الكافي للقدرة العالية للحفاظ المعماري في التنمية المجتمعية، ليس فقط لتحقيق القيم الجمالية للمباني التي تم الحفاظ عليها، وإنما في إبقاء الهوية التراثية وخلود التراث الحضاري. ومن الملاحظ أن الحفاظ المعماري يحتل في العديد من الدول الأولوية في أجندة تلك الدول وبشكل مستغرب رغم تبعاته الاقتصادية العالية في بعض الأحيان وذلك بسبب عدة عوامل من أهمها الأهمية الثقافية والحضارية.

ويحتوي قطاع غزة الواقع على البحر المتوسط جنوب غرب فلسطين بمساحة ٣٦٠ كيلومتر مربع على العديد من عناصر التراث العمراني الثقافي متمثلة في أربعة جوانب: إما في مباني تاريخية وأثرية، أو في مناطق تاريخية، أو في مواقع أثرية وتاريخية، أو في الحرف اليدوية التقليدية. إن ما يحتويه القطاع من تلك العناصر لا تقارن من حيث الكم أو من حيث القيم التاريخية والثقافية والاقتصادية بما هو موجود في بعض المدن الفلسطينية مثل مدينة القدس بحرمها القدسي الشريف أو بكنيسة القيامة أو بالبلدة القديمة وغيرها، ولا بمثل البلدة القديمة في مدينة نابلس ومدينة الخليل، ولا بمثل كنيسة المهد ببيت لحم وبرك سليمان وغير ذلك من المخزون العمراني التراثي بالضفة الغربية، ولكن تبقى العناصر الموجودة بالقطاع ذات أهمية كبيرة وتحمل العديد من القيم التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والفنية وذلك على سبيل المثال لا الحصر الجامع العمري الكبير وكنيسة القديس بيرفوريوس ومتحف قصر الباشا وحمام السمرة والزاوية الأحمدية وجامع ابن عثمان وجامع السيد هاشم وموقع ميناء الأنثيدون وتلة المنطار وأجزاء من البلدة القديمة بمدينة غزة، وقلعة برقوق بمدينة خانيونس، ودير القديس هيلاريون بمدينة النصيرات، وغير ذلك من المباني والمواقع التاريخية المنتشرة بأرجاء القطاع من شماله إلى جنوبه.

ولقد تعرضت المباني والمناطق والمواقع التاريخية في الحرب الحالية على القطاع للهدم والتخريب بدرجات متفاوتة حيث تشير دراسة أعدتها وزارة السياحة والآثار بأن حوالي ٤٤٪ من عناصر التراث في قطاع غزة قد تضررت بدرجة شديدة، وحوالي ١٩٪ قد تضررت بدرجة متوسطة، وحوالي ٨٪ قد تضررت بدرجة بسيطة (MOTA, 2025). وحسب نفس التقرير فإن معظم المباني التراثية المتضررة هي مباني سكنية (عدد ١٠٢ مبنى أي حوالي ٤٥٪ من المباني المتضررة، وعدد ٤ متاحف بنسبة حوالي ٢٪ من المباني المتضررة، وعدد ٢٤ مبنى وموقع ديني بنسبة حوالي ١٠٪ من المباني المتضررة (MOTA, 2025).

وتعتبر المباني التي تعرضت للهدم الكلي أو الأضرار البليغة أو المتوسطة والجزئية ذات قيمة ثقافية هامة تتراوح بين القيمة العالية جداً والعالية والمتوسطة والطفيفة. وقد تبين بأن ٣٠٪ من المباني المتضررة (٦٨ مبنى) هي ذات قيمة عالية جداً، و ٤٤٪ منها ذات قيمة عالية (٩٩ مبنى)، و ٢٥٪ ذات قيمة متوسطة (٥٦ مبنى)، و حوالي ٢٪ ذات قيمة طفيفة (٣ مباني) (MOTA, 2025). وبالتالي فإن معظم ما خسره قطاع غزة من المباني التراثية يعتبر ذو قيمة ثقافية عالية وهامة, وهذا يتطلب البحث والنظر في كيفية إعادة هذه القيم الثقافية في مناطق قطاع غزة عند إعادة اعمار القطاع. إن هذا الموضوع يضيف عبئاً على المخططين والمصممين, إضافة إلى ما يواجهونه من تحديات في كيفية إعادة إعمار المباني والمواقع والمناطق التراثية.

الدكتور المهندس نهاد محمود المغني، مهندس معماري وخبير في الحفاظ المعماري، جامعة فلسطين، غزة، فلسطين، للمراسلة: n.almughany@up.edu.ps.
حقوق النشر 2025، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس (www.alquds.edu).

ولقد اعتبر الحفاظ المعماري في العالم عبر سنوات عديدة سابقة نوعاً من الحنين لرومانسية المباني القديمة لإبراز قيمها الجمالية التي كانت تتآكل عبر الزمن، وتمثل ذلك في ترميم واجهات المباني الهامة والمباني التذكارية فقط. ولكن هذا التوجه أصبح أكثر واقعية وأقرب إلى النواحي العملية عندما أصبح الحفاظ على المناطق والمباني القديمة أقرب إلى تحقيق أهداف حضارية وثقافية. وأشار إلى ذلك بييرو جازولا (Piero Gazzola) بقوله أن عملية الحفاظ يجب ألا تكون فقط للواجهات الخارجية وإنما يجب أن تكون ثقافية واجتماعية كذلك (UNESCO, 1975).

إن أهمية القيم الحضارية والثقافية للتراث المعماري لها عدة نواحي. من تلك النواحي هي العلاقة بين الحضارة والثقافة. ففي فلسطين، وفي العديد من البلدان النامية، هنالك اعتقاد نفسي أن التحضر يكمن في الاستيراد من الحضارات الأخرى خاصة الغربية. وقد أوضح هابورد (Hubbard) أن الحفاظ على المباني المألوفة يعتبر ذا قيمة في استقرار الهوية الفردية والجماعية، وخاصة في الأوقات الحرجة (Hubbard, 1993). أما درجة التدخل في المباني فقد أوضحها فيتش (Fitch) حيث أشار إلى أن الحماية الشاملة للتراث والبحث في النظريات المتعلقة بنشأته يعتبر في غاية الأهمية لمستقبل الثقافة والحضارة (Fitch, 1990). وهذا يوضح مدى أهمية الحفاظ على القيم الثقافية والحضارية في التراث المعماري بقطاع غزة للحفاظ على الهوية الثقافية التي تربط الحاضر بالماضي والمستقبل، وكذلك يتطلب ذلك مراعاة الدقة سواء عند إعادة اعمار المباني المتضررة أو عند ترميم المباني القائمة أو عند بناء مباني جديدة ليكون فيها ملامح تعكس الثقافة المحلية.

وقد حاول البعض إنكار الهوية الثقافية للفلسطينيين كونهم لا يعيشون في وطن مستقل لهم، وحاولوا وصفهم ب «لاجئين» أو «أقلية». وقد ساعدهم على تلك الفكرة عزوف الفلسطينيين عن الانتماء لتراثهم سواء في بناءهم أو في عاداتهم الثقافية. بالطبع فإن الفلسطينيين يعيشون ظروفاً صعبة ولم تتحقق أمنياتهم بوطن مستقل بعد، ولكن رغم ذلك فإن الفلسطينيين يميزون أنفسهم ثقافياً ويحاولون بعث ثقافتهم الخاصة بهم ليميزوا أنفسهم عن غيرهم وذلك في بعض الجوانب الثقافية والتراثية التي تنظم من مسرح وشعر وملابس وفي مشاريع الحفاظ على التراث المبني وغير ذلك من الأنشطة الثقافية. ويشير البروفيسور إدوارد سعيد بأنه بالرغم من حقيقة أننا بدون وطن خاص بنا لكننا متحدون كأمة بسبب أن الفكرة الفلسطينية لها خصوصية معينة تجعلنا جميعاً نتجاوب معها إيجابيا. ويضيف سعيد بأننا عندما نتحدث عن الثقافة الفلسطينية وما يميزها فيمكننا التحدث عن الخصوصيات في تركيبة المجتمع وهيكلته، وعن القرية، والأسرة، والعادات، والتقاليد، والفولكلور، واللهجات، والمنطقة التي كانت طوال الوقت وطناً خاصاً بهم وشكلوا بها أمة (Said, 1980). هذا يعكس مدى غزارة موارد الثقافة الفلسطينية وما على المخططين والباحثين والطلبة إلا أن يبحثوا من خلالها على القيم الثقافية العالية التي يمكن تجسيدها في تصميماتهم الحديثة أو في عملية إعادة بناء العناصر التراثية المبنية. ويجدر الإشارة هنا إلى أن الهوية الثقافية الفلسطينية لا تعود فقط إلى الأمة العربية، ولكنها ترتبط أيضاً بالثقافة الإسلامية كون الفلسطينيين جزء من العالم الإسلامي، وترتبط في بعض المناطق بالثقافة المسيحية، وكون الفلسطينيين بصفة عامة مجتمع بغالبيته ينتمي لعقيدة دينية، فإن تلك العقيدة تعتبر عاملاً أساسياً من هويته الثقافية.

وفي إطار التخطيط المستقبلي لقطاع غزة وبعد التدمير الكبير الذي حصل للمباني التاريخية والأثرية، فمن الضروري العمل على إعادة إعمارها بما يضمن الحفاظ عليها لنقلها للأجيال القادمة، وهذا لا يعني بناءها تماما كما كانت ولكن ضمن تخطيط مدروس وأفكار ونظريات خاصة بها. وفي سياق إعادة إعمار المباني فمن المحبذ اقتباس روح المباني التاريخية وعناصرها في المباني الجديدة لإكمال السلسلة التاريخية وعدم فقدان حلقة من حلقاتها. كما أن الحفاظ على ما تبقى من تراثنا المعماري والثقافي يعتبر ذو أهمية كبيرة ليكون أحد المصادر الهامة والمراجع الحية للأجيال الحالية والقادمة للتواصل ومحاولة الاقتباس منه في ابتكاراتها المعاصرة حتى نوصل الحاضر بالماضي ولا تشعر الأجيال القادمة بأنهم غرباء عن هذا الوطن المتميز في عمق حضارته وجذورها الضاربة في التاريخ.

المراجع

- المغني، نهاد (٢٢ . ٢)، الحفاظ المعماري – رؤية في الجوانب والنظريات والتطبيقات مع إشارة إلى أنظمة الحفاظ المعماري في فلسطين، غزة: مكتبة اليازجي ناشرون وموزعون.

المراجع الأجنبية

- Hubbard, P. (1993). The Value of Conservation: A Critical Review of Behavioural Research, *Town Planning Review*, vol. 64, no. 4.
- Fitch, J. (1995). Historic Preservation- Curatorial Management of the Built World. Third Printing, USA: University Press of Virginia.
- MOTA. (2025). Report: Damage and Risk Assessment of Cultural Heritage Under Attack in the Gaza Strip.
- Said, E. (1980). The Question of Palestine. Great Britain: Routledge & Kegan Paul Ltd.
- UNESCO (1975). The Conservation of Cities. Paris: The UNESCO Press.